(٤)

بين الصورة والحقيقة

« الجسد بلا روح جماد لا ينفع ، والصورة بلا حقيقتها وهم وخداع . أو ظل لا يغني ولا يفيد . وفي الأرض حقائق صغيرة تتباع في صور كبيرة . ومن الواجب ان تسودها حقيقة الاسلام الكبرى . ونحن اليوم في زمن لنا فيه رسوم الاسلام واشكاله واقواله ولكن ليس فينا حقيقته ولا روحه . وما اكثر ما نعلمه او نعتقده . وما اقل ما نستجيب له او نفي فيه ! . . .

يا مسلمة اليوم . ضعوا الاسلام من الداخل لا من الخارج . اجعلوه في القلوب والعقول والعزائم . لا في الصور والمظاهر . ويومئذ تفرحون بنصر الله العلي الكبير »

الشرباصي

بين الصورة والحقيقة

إن كل شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرق كبير رغم الشبه العظيم ، تميزون بينهما بسهولة فى حياتكم وتعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة . وأضرب لذلك مثلين . هذه مثل للثمار مصنوعة من الخزف تتراءى للناظر كأنها تفاح ورمان وبرتقال وعنب وموز فى لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة وأين طعم هذه الثمار ورائحتها ؟ إنها ليست إلا للزينة أو التمثال

إنكم ترون فى المتحف كل نوع من السباع والأنعام والطيور الجميلة والعصافير الصغيرة . ففيها الأسد والذئاب والأفيال والدباب ، وفيها كل طائر جارح وكل سبع مخيف ، ولكنها جثث هامدة لاحراك بها وأجساد ميتة محشوة بالليف والقطن ليس فيها رمق من حياة وقوة تهجم بها وتصول حتى لاتحس منها من أحد ولا تسمع لها زكزا .

إن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها ، ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة فى الحياة وتأتى بما تأتى به من عمل ونشاط ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها فاذا وقع صراع بينهما انهارت الصورة ، ولا يمكنها أن تحتمل عبء الحقيقة . فاذا وكل أحد إلى الصورة وظيفة الحقيقة أو عول عليها فى مهمة خانته الصورة وخذلته أحوج مايكون إليها .

والصورة ولو كانت مهيبة هائلة ، تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة ، لأن الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة . وان الولد يقدر أن يسقط الاسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة ، والأسد ليس إلا صورة ولو كانت صورة مهيبة .

إن هذا العالم الذى نعيش فيه ؟ عالم الحقيقة والأمر الواقع . وقد خلق الله كل شيء على حقيقة ، فللمال حقيقة وجه فطرى طبعى ، ولأجل ذلك وردت عنه الأحكام ووضع الله فيه التأثير والجذب ، وللاولاد حقيقة والحنان

إليهم وحبهم فطرى ولأجل ذلك وردت الأحكام فى الشرع عن تربيتهم وتعليمهم ، وكذلك للحاجات الطبعية والميول الفطرية حقيقة لاتجحد . ولا تغلب تلك الحقائق إلا حقيقة أقوى ورغبة أعظم وأشد .

إننا نحتاج إلى حقيقة الاسلام والايمان للظفر على الحقائق المبثوثة فى العالم . أما صورة الاسلام فهى عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها وإن كانت حقائق ممزوجة بالباطل لأن الصورة المجردة لاتنتصر على أى حقيقة .

ولذلك نرى اليوم بأعيننا أن صورة الاسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة ، لأن الصورة ولو كان ظاهرها مقدسا رائعا ليس لها سلطان وتأثير وان صورة اسلامنا وصورة كلمتنا وصلاتنا اليوم لاتقدر ان تتغلب على عاداتنا الحقيرة وتقهر شهواتنا وتثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان .

إن الكلمة التى كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب والارواح وكانت تهون على الناس ترك المألوفات وقهر الشهوات والشهادة فى سبيل الله وبذل الأرواح والأنفس لله واحتمال المكارة وتجرع المرائر فى سبيل الدين هاهى الآن عاجزة عن ان تحمل الناس على ترك فرشهم بعد ان استغرقوا فى النوم طول الليل ويقوموا لصلاة الفجر ! نعم ، الكلمة التى كانت تغلب على شهوة الخمر فتحول بين الانسان وبين الكأس وهى على راحته فيمتنع من شربها لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأبى عليه ان يقرب الحرام ، هاهى الآن قد اصبحت لا تملك امرا ولا نهيا :

سرح طرفك فى تاريخ الاسلام وتجول فى فصوله وأوراقه يظهر لك ان كلمة الاسلام التى كان الصحابة وكان المسلمون فى القرون الأولى يتلفظون بها كانت ذات حقيقة ثابتة وكانت كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها . وكلمتنا نحن الفاظ مجردة ونطق فارغ ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها فى حياة الامة ، ثم إننا مع ذلك نحاول ان نطبق حياة اصحاب النبى ﷺ على حياتنا ونرجو ان تؤتى هذه الكلمة اكلها كل حين وتحدث ما احدثت فى الماضى حتى إذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تسائلنا وقلنا : السنا مسلمين ؟ السنا نصلى ونصوم ؟ الا نتلفظ بكلمة الاسلام ونرددها صباحا ومساء ؟ فلماذا هذا

الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين ، ولماذا هذا البون الشاسع بين حفلنا وحفلهم ؟ واين ثمرات شجرة الايمان ، واين نتائج الصلاة والصيام ، واين ماوعد الله من النصر المبين والاستخلاف والتمكين ؟ !

لاتخدعنا انفسنا ولنعلم انهم كانوا اصحاب جد وحقيقة الدين . لقد كانت كلمتهم حقيقة ، وكانت صلاتهم حقيقة ، ونحن متجردون عن هذه الحقائق فرجاء أن تثمر الصورة ماأثمرت الحقيقة وتغني غناءها . إنما هو وهم خيال وضرب من المحال .

أما قرأتم في التاريخ أن خبيبا رضي الله عنه رقعوه على الخشب وتناولوه بالرماح والألسنة حتى تمزق جسمه وهو قائم لايشكو ولايئن فيقال له : أتحب ان يكون محمد ﷺ مكانك ؟ فيضطرب ويقول : والله لا أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه !

يا أبناء الاسلام ! ان الذي بثه في هذا المكان وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة في حب الرسول هل هي صورة الاسلام ؟ لا بل هي الحقيقة التي مثلت بين عينيه الجنة والرماح تنوشه وتعبث بجسمه وتاجته وقالت : صبرا ، ياخبيب ؟ فما هي إلا لحات وثوان ، وهاهي الجنة تنتظرك ورحمة الله ترتقبك فاذا احتملت الآم هذا الجسد الفاني والحياة الزائلة العابرة نلت السعادة الدائمة والحياة الباقية .

هذه هي اللذة الروحية وحقيقة الحب والايمان التي أبت على خبيب أن يطلق ويؤذى رسول الله ﷺ بشوكة في قدمه . فهل تستطيع الصورة أن تحمل صاحبها على هذا الاخلاص والتفاني والثبات على العقيدة والصبر على الموت ؟ كلا ؟ إنه الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام بل حتى الخيالات والأوهام . وقد بدا لنا ذلك في الاضطرابات الطائفية الماضية في الهند فان أناسا من المسلمين قد غيروا صورة الاسلام خوفا مما مر بخاطرهم من الفزع وخشية الموت وما دار في رؤسهم من معارك خيالية حامية واختاروا شعار الكفر وذلك لأن هؤلاء الناس قد كانوا متحلين بالصورة فارغين عن الحقيقة .

هاجر سيدنا صهيب رضي الله عنه فلما كان في الطريق اعترضته جماعة من مشركي مكة وقالوا له : أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغت ثم تريد

لك أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركة بين حقيقة الاسلام وحقيقة المال ودارت بينهما رحى الحرب فانتصرت حقيقة الاسلام على ضدها وقال لهم صيب : أ أريتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، قال : فانى قد جعلت لكم مالى (١) ، وهكذا انطلق صيب بدينه متجردا من ماله فرحا مسرورا كأنه لم يفقد شيئا ولم يخسر شيئا .

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة فلما رأته رجال من بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ، ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوها منه وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير ، هناك اصطدمت حقيقة الاسلام بحب الزوج والولد فما لبثت ان انتصرت عليه ، وغادر أبو سلمه زوجه وولده تحت رعاية الله وهاجر وحيدا . هل الصورة تستطيع ذلك ؟ ؟ وهل يقدر اصحابها على ترك الزوجات والأولاد فى سبيل العقيدة والدين ؟ كلا ، بل سمعنا ان اناسا قد ارتدوا عن دينهم للمال والأزواج والأولاد وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها .

كان ابو طلحة مقبلا على صلاته فاذا طائر يدخل فى بستانه ثم لا تجد الطريق للخروج ويميل إليه قلب ابى طلحة ، فلما انصرف من صلاته تصدق بهذا البستان ، لأنه لا يحب ان يشغله شيء عن حقيقة صلاته وينازع قلبه !

إن للبستان حقيقة وثمره وأكله حقيقة ولا تغلب هذه الحقائق الا حقيقة الاسلام وان صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة ولذلك لا تقدر ان تقاوم ادنى الحقائق المادية .

لقد كان فى حرب يرموك بضعة آلاف من المسلمين واما الروم فقد كان عددهم يبلغ الى خمس مائة ألف او يزيدون ، فاذا نصرانى كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول : ما أكثر الروم واقل المسلمين ، فيقول خالد رضى الله عنه : والله لوددت ان الأشقر برأمن توجهه وانهم اضعفوا فى العدد (٢)

هكذا كان خالد رضى الله عنه مطمئنا . ولم لم يشغل خاطره

---

١ — سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٢١

٢ — الأشقر فرس خالد وكان قد حفاه اشتكى فى مجيئه من العراق (البداية والنهاية ج ٨ ص ٩) .

هذا العدد الهائل ولم لم تكبر فى عينه جنود الروم الكثيفة ؟ ذلك لأنه كان مؤمنا بالله واثقا بنصره ، ولأنه كان يعلم انه على الحقيقة ، وان مقابله صورة فحسب ، وان الروم صورة فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد ان الصورة مهما كثرت لا تقدر ان تقاوم حقية الاسلام .

لا شك اننا نتلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد ومنا من يعرف مايقول ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر . ان اصحاب النبي ﷺ والمسلمين الصادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة فاذا قالوا : لاإله إلا الله اعتقدوا أنه لا إله غيره ولا رب غيره ولارازق غيره ولا نافع ولا ضار الا هو له الملك والحكم والخلق والأمر وبيده ملكوت كل شيء يجير ولا يجار عليه وأخلصوا له الحب والخوف والسوال والرجاء والعبادة والدعاء واصبحوا عباداً حنفاء شجعان اقوياء لايهابون العدو ولايخافون الموت ولا يبالون بلومة لائم .

نرجع إلى أنفسنا ونفكر هل هذه الحقيقة متغلغلة فى أحشائنا ومتسربة فى عروقنا وشرائيننا وهل غرس حياتنا يسقى بهذا الماء معذرة وعفواً أيها القراء ! إنا نخاف أن لايكون الامر كذلك وأن نصيب الصورة فى حياتنا أكثر من أن نصيب الحقيقة وذلك موضع الضعف فى حياتنا وسر شقائنا ومصائبنا .

إننا جميعا نؤمن أن الآخرة حق والجنة حق والنار حق والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل إننا حاملون لحقيقة الايمان كأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان ، وقد سمعنا أن أحدهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قوموا إلى جنة عرضها السموات والارض . فرمى بما معه من التمر وقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه انها لحياة طويلة وقاتلهم حتى قتل ، لأن الجنة كانت عنده حقيقة لايشك فيها . فمن أيقن بقول كأنس بن النضر إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد .

أتى رجل من المسلمين يوم اليرموك وقال للامير : إنى قد تهيأت لأمرى

فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال . نعم اقرئه عنى السلام وقول : يارسول الله إنا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا

فيقول هذ إلا من يوقن أنه مقتول فى سبيل الله وملاق رسول الله ومجتمع به فى نعمة الله وأنه مكلمه ومحدثه . فاذا حصل لرجل مثل هذا اليقين فما الذى يمنعه من استقبال الموت وما الذى يحول بينه وبين الشهادة ؟ إن أكبر إنقلاب وقع فى تاريخ هذه الأمة هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة واستولت على حياة الأمة وذلك من عهد بعيد فى التاريخ والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون انها الحقيقة ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هذه الصورة الاسلامية كجدار ينصبه الفلاح فى حقله كيلا يحل فيه الطير والوحش، ولا تزال الطيور والوحش تظن انه إنسان أو حارس فلاتقربه حتى يتشجع غراب ذكى أو حيوان جرىء فيجد انه ليس بشىء ، هنا لك تدخل الطيور والوحش فى هذا الحقل وتعيث فيه وتتلف زرعه ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الاسلام مدة طويله جدا ؛ فلم تجترىء عليهم امم العالم ولم يدر بخلد أحد أن يمتحن هذا الشبح المخيف ويتحققة ، ولكن حتى متى ؟ لما أغار التتار على بغداد افتضح المسلمون وظهر إفلاسهم فى الروح والقوة المعنوية من ذلك الحين أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظ عليهم وتذود عنهم المكروه وتدفع عنهم غارات الامم ، فان الصورة لاتقوم إلا على الجهل والغرور فاذا انكشف الغطاء وزاح الستار بين الصبح لذى عينين .

وإن مانرى ونقرأ فى تاريخ الاسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم فى ميادين القتال إن كل ذلك أخبار انخذال الصورة وفضيحتها لاغير وقد فضحتنا الصورة فى كل معركه وحرب ومقاومة واصطدام . . ولكن الذنب علينا لأننا حملنا عبء الحقيقة على ظهر الصورة فلم تستطع حمله ولم تمسكه وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفه فخيبت رجاءنا وكذبت أمانينا وخذلتنا فى الميدان .

تكرر الصراع بين صورة الاسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفى كل مرة

تتخذل وتنهزم الصورة ويعتقد الناس انه هزيمة الاسلام وخذلانه وبذلك هان الاسلام فى عيون الناس وزالت مهابته عن القلوب ، ولا يدرى الناس أن حقيقه الاسلام لم تتقدم إلى ساحة الحرب منذ زمن طويل ولم تنازل امم العالم، وان الذى يبرز فى الميدان هو صورة الاسلام لاحقيقته ، وخليق بالصورة ان تنهزم وتضمحل أمام الواقع والأمر الجد .

هاجمت بعض الدول الاوربيه فى الحرب الاولى تركيا الاسلامية تركيا التى ارعبت أوروبا كلها وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا فى هذه المرة حاملة لصورة شاحبة للاسلام وقد فقدت شيئا كثيرا من حقيقة الايمان ففشلت فى المقاومة وفقدت كثيرا من ممتلكاتها .

واجتمع سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية فى فلسطين ، وكانت هذه الدول العربية عليلة الروح وقد اطفأت المادية الاوربية جمرة القلوب وشعلة الجهاد فى سبيل الله وحببت إليها الحياة والملذات ثم انها تتخلف تخلفا كبيرا فى المعدات الحربية والتنظيمات العصرية، فكانت الحرب بين العرب المسلمين واليهود الصهيونيين صراعا بين صورة الاسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كل صراع بين الصورة والقوة .

إن الصورة لها منزلة ومكانة عند الله تعالى ، لأنه قد عاشت فيها الحقيقة قرونا طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه، وكذلك نعرف لها الفضل، لأن الانتقال من صورة الاسلام إلى حقيقة الايمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته إلى حقيقة الايمان والاسلام . فلنحافظ على هذه الصورة ولنتمسك بها ، ولكن لاينبغى أن نقنع بها ونستهين بالحقيقة والروح .

يا أبناء الاسلام ! إن وعد الله من النصرة والفتح فى الدنيا والنجاة والغفران فى الآخرة كل ذلك محصور فى حقيقة الاسلام وذلك قوله تعالى : « ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » لاشك فإن الخطاب فى هذه الآية للمسلمين ومع ذلك اشترط الايمان للعزة فى الارض والعلو والشوكة ، وقال فى

موضع آخر : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد» وقال أيضا : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » ورغم أن جميع تلك الوعود كانت على أساس الايمان والاعمال الصالحة اشترط ان يكون فى المسلمين حقيقة الايمان والتوحيد .

إن أكبر مهمة دينية فى هذا العصر وأعظم خدمة وجلها للامة الاسلامية هى دعوة السواد الأعظم للامة واغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الاسلام إلى حقيقة الاسلام فلمثل هذا فليعمل العاملون وليبذلوا جهودهم ومساعيهم فى بث روح الاسلام فى جسم العالم الاسلامى ولا يدخروا فى ذلك وسعا فبذلك يتحول شأن هذه الامة وفى نتيجته شأن العالم بأسره فان شأن العالم تبع لشأن هذه الأمة وشأن الأمة تبع لحقيقه الاسلام ، فاذا زالت حقيقة الاسلام من الأمة المسلمة فمن يدعو العالم إلى حقيقة الاسلام ومن ينفخ فيه الروح؟ قال سيد عيسى عليه الصلاة والسلام لأصحابه « أنتم ملح الأرض فاذا زالت ملوحة الملح فاذا يملح الطعام ؟ »

قد أصبحت حياتنا اليوم جسداً بلا روح لأن السواد الأعظم للامة مجرد عن الروح فارغ عن الحقيقه فكيف يعود الروح والحقيقة فى الحياة الانسانية مرة أخرى ؟ !

إن فى هذا العالم مما لاتزال فارغة عن الحقيقة والروح من أقدم العصور إلى يومنا هذا ولم يبق فيها إلاعدة معتقدات مرسومة وبضع صور حقيرة مجرد عن الروح وانتهت حياتها الدينيه والروحيه الحقيقية من جديد ، حتى أن إنشاء أمة بأسرها أيسر من إصلاح هذه الأمم وتجديد حياتها الدينية والخلقيه والذين نهضو لاصلاحها وبذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل قد أخفقوا ولم يفلحوا فى مهمتهم رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التى حدثت فى هذا العهد من الطبع والنشر والتأليف والاذاعة والتعليم والتربية وطرق الدعاية والتأثير وذلك لأن

عروة دينها قد انفصمت انفصاماً تاما ، وانقطعت علاقتها عن منبع الحياة الدينية والخلقية والروحية .

أما الأمة الاسلامية فلا تزال — على علاتها وضعفهـا — مستمسكة استمساكا ما بعروة الدين وهي الايمان بالله والرسول واليقين بالدار الاخرة والحساب لم تتركها تبته ولم تنقطع عنها انقطاع الأمم الأخرى بل إن إيمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يزري بايمان كثير من خواص الأمم الأخرى وعليتهم ويفوقه متانة ورسوخا وحماسة ، ثم ان كتابها لايزال فى يدهالم يتناوله التحريف ولم يعبث به العابثون كما فعلوا بالصحف الأولى ولا تزال سيرة الرسول واسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة الى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب مهيئة ؛ وجمرة الايمان سريعة الاتقاد والشقة بين الصورة والحقيقة قصيرة ، والفطرة بينها الدعوة الى تجديد الايمان والرجوع إلى الدين والتشبع بروحه والتحلى بحقيقته .

لست قانطا من ظهور حقيقة الاسلام فى هـذا العصر ، ولاتصدق أبدا بأن الزمان قد تغير والمسلمين قد ابتعدوا جداً عن روح الاسلام فلا أمـل فى حقيقة الاسلام وغلبتها من جديد ، أنظروا الى ورائكم ترون جزر حقيقة الاسلام قائمة منتشرة فى فجر التاريخ ، وان الحقيقة لم تزل تطفو كلما رسبت وتظهر كلما اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الاسلام وتجلت فى ناحية من نواحى العالم الاسلامى أو عصر من عصور التاريخ الاسلامى غلبت وانتصرت وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم وكادت الأحوال والأمور ان تعود لما كانت عليه فى الماضى السعيد وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الأول ، وإن حقيقة الاسلام فى هذا العصر إذا ظهرت وتمثلت فى جماعة تستطيع ان تذلل كل عقبة وتهزم كل قوة وتاتى بعجائب وآيات من الايمان والشجاعة والايثار يعجز الناس عن تعليلها كما عجزو من قبل عن تعليل حوادث الفتح الاسلامى واخبار القرن الأول .